من المقامة المضيريّة

من المقامة المضيريّة

(1) حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشام، قَالَ: كُنْتُ بِالبَصْرَةِ، وَمَعِي أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيّ، رَجُلُ الفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ، وَالبَلاغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ، وَحَضَرْنَا مَعْهُ دَعْوَةَ بَعْضِ التُّجَّارِ، فَقُدِمَتْ إِلَيْنَا مَضِيرَةٌ تُثْنِي على الحَضَارَةِ، وَتَتَرَجْرَجُ فِي الغَضَارَةِ، وَتُؤْذِنُ بِالسَّلاَمَةِ، وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ، رَحِمَهُ اللهُ بِالإِمَامَة، فِي قَصْعَةٍ يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ، فَلَمَّا أَخَذَتْ مِنَ الخِوانِ مَكانَهَا، وَمِنَ القُلُوبِ أَوْطَانَهَا، قَامَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيّ يَلْعَنُهَا وَصَاحِبَهَا، وَيَمْقُتُهَا وَآكِلَهَا، وَيَثْلِبُهَا وَطَابِخَهَا، وَظَنَنَّاهُ يَمْزَحُ فَإِذَا الأَمْرُ بِالضِّدِّ، وَإِذَا المُزَاحُ عَيْنُ الجِدِّ. وَتَنَحَّى عَنِ الخِوَانِ، وترك مُسَاعَدَةَ الإِخْوَانِ. وَرَفَعْنَاهَا؛ فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا القُلُوبُ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا العُيُونُ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الأَفْوَاهُ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ، وَاتَّقَدَتْ لَهَا الأَكْبَادُ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الفُؤَادُ، وَلكِنَّا سَاعَدْنَاهُ على هَجْرِهَا، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِهَا، فَقَالَ: قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ آمَنِ المَقْتَ، وَإِضَاعَةَ الوَقْتِ، قُلْنَا :هَاتِ: قَالَ:

(2) دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَى مَضِيرَةٍ، وَأَنَا بِبَغْدَادَ، وَلَزِمَنِي مُلاَزَمَةَ الغَرِيمِ، وَالكَلْبِ لأَصْحَابِ الرَّقِيمِ، إِلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إِلَيْهَا، وَقُمْنَا؛ فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْنِي عَلَى زَوْجَتِهِ، وَيُفَدِّيهَا بِمُهْجَتِهَ، وَيَصِفُ حِذْقَهَا فِي صَنْعَتِهَا، وَتَأَنُّقَهَا فِي طَبْخِهَا، وَيَقُولُ: يَا مَولاْيَ، لَوْ رَأَيْتَهَا وَالخِرْقَةُ فِي وَسَطِهَا، وَهْيَ تَدُورُ فِي الدُّورِ، مِنَ التَّنُّورِ إِلَى القُدُورِ، وَمِنَ القُدُورِ إِلَى التَّنُّورِ، تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الأَبْزَارَ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَّرَ فِي ذَلِكَ الوَجْهِ الجَمِيلِ، وَأَثَّرَ فِي ذَلِكَ الخَدِّ الصَّقِيلِ، لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا تَحارُ فِيهِ العيُونُ! وَأَنَا أَعْشَقُهَا لأَنَّهَا تَعْشَقُنِي. وَمِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ أَنْ يُرْزَقَ المُسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ، وَأَنْ يُسْعَدَ بِطَعِينَتِهِ، وَلاَ سِيَمَّا إِذَا كانَتْ مِنْ طِينَتِهِ. وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي لَحًّا، طِينَتُها طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَأَرُومَتَها أُرُومَتِي، لَكِنَّها أَوْسَعُ مِنِّي خُلْقًا، وَأَحْسَنُ خَلْقًا.

(3) وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ، حَتَّى انْتَهَينَا إِلَى مَحَلّتِهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مَوْلاي، تَرَى هَذِهِ المَحَلَّةَ؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالِّ بَغْدَادَ، يَتَنَافَسُ الأَخْيَارُ فِي نُزُولِها، وَيَتَغايَرُ الكِبَارُ فِي حُلُولِهَا. ثُمَّ لاَ يَسْكُنُهَا غَيْرُ التُّجَّارِ، وَإِنَّمَا المَرْءُ بِالْجَارِ. وَدَارِى فِي السِّطَّةِ مِنْ قِلادَتِهَا، وَالنُّقْطَةِ من دَائِرتِهَا. كَمْ تُقَدِّرُ، يَا مَوْلايَ، أُنْفِقَ عَلى كُلِّ دَارٍ مِنْهَا؟ قُلْهُ تَخْمِينًا إِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ يَقِينًا، قُلْتُ: الكَثِيرُ! فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَكْبَرَ هَذا الغَلَطَ! تَقُولُ: الكَثِيرُ فَقَطْ؟ وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ.

(4) وَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ دَارِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي. كَمْ تُقَدِّرُ، يَا مَوْلايَ، أَنْفَقْتُ على هذِهِ الطَّاقَةِ؟ أَنْفَقْتُ، واللهِ، عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَوَرَاءَ الفَاقَةِ. كَيْفَ ترى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا؟ أَرَأَيْتَ، باللهِ، مِثْلَهَا؟ انْظُرْ إِلَى دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجَهَا! فَكَأَنَّمَا خُطَّ بِالبِرْكارِ! وَانْظُرْ إِلى حِذْقِ النَّجَّارِ فِي صَنْعَةِ هذَا البَابِ! اتّخذهُ مِنْ كَمْ؟ قُلْ: وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ؟ هُوَ سَاجٌ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لاَ مَأْرُوضٌ وَلا عَفِنٌ. إِذَا حُزِّكَ أَنَّ، وَإِذَا نُقِرَ طَنَّ. مَنِ اتَّخَذَهُ يا سَيِّدِي؟ اتَّخَذَهُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ مَحَمَّدٍ البَصْرِيّ. وَهوَ، واللهِ، رَجُلٌ نَظِيفُ الأَثْوَابِ، بَصِيرٌ بِصَنْعةِ الأَبْوَابِ، خَفِيفُ اليَدِ فِي العَمَلِ. للهِ دَرُّ ذَلِكَ الرَّجُلِ! بِحَياتِي لا اسْتَعَنْت إلا بِهِ عَلى مِثْلِهِ!

(5) وَهَذِهِ الحَلَقَةُ تَرَاهَا؟ اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عِمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلاثَةِ دَنَانِيرَ مُعِزِّيَّة. وَكَمْ فِيهَا، يَا سَيِّدِي، مِنَ الشَّبَهِ؟ فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ. وَهِيَ تَدُورُ بِلَوْلَبٍ فِي البَابِ. بِاللهِ دَوِّرْهَا! ثُمَّ انْقُرْهَا وَأَبْصِرْهَا! وَبِحَياتِي عَلَيْكَ، لا اشْتَرَيْتَ الحَلَقَ إِلاَّ مِنْهُ! فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلاَّ الأَعْلاَقَ.

(6) ثُمَّ قَرَعَ البَابَ، وَدَخَلْنَا الدِّهْلِيزَ، وَقَالَ: عَمَّرَكِ اللهُ، يَا دَارُ! تَأَمَّلْ بِاللهِ مَعَارِجَهَا، وَتَبَيَّنْ دَواخِلَهَا وَخَوارِجَهَا! وَسَلْنِي: كَيْفَ حَصَّلْتَهَا؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلْتُهَا، حَتَّى عَقَدْتُهَا؟ كانَ لِي جَارٌ يُكْنَى أَبَا سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ المَحَلَّةَ، وَلَهُ مِنَ المَالِ مَا لا يَسَعُهُ الخَزْنُ، وَمِنَ الصَّامِتِ مَا لاَ يَحْصِرُهُ الوَزْنُ. مَاتَ، رَحِمَهُ اللهُ، وَخَلَّفَ خَلَفًا أَتْلَفَهُ بَيْنَ الخَمْرِ وَالزَّمْرِ، وَمَزَّقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالقَمْرِ. وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوقَهُ قَائِدُ الاضْطِرَارِ إِلَى بَيْعِ الدَّارِ، فَيَبِيعُهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَرِ، أَوْ يَجْعَلُهَا عُرْضَةً لِلْخَطَرِ. ثُمَّ أَرَاها، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا، فَأَنْقَطِعُ عَلَيْهَا حَسَرَاتٍ، إِلَى يَوْمِ المَماتِ. فَعَمدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لاَ تَنِضُّ تِجَارَتُهَا، فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيَّةً، وَالمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَّةَ عَطِيَّةً، والمُتَخَلِّفُ يَعْتَدُّهَا هَدِيَّةً. وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ المَالِ، فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي. ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنِ اقْتِضَائِهِ، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ، فَأَتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ، واسْتَمْهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ، وَالْتَمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِيَّابِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ، فَفَعَلَ. ثُمَّ دَرَّجْتُهُ بِالمُعَامَلاتِ إِلَى بَيْعِهَا، حَتَّى حَصَلَتْ لِي بجِدٍّ صَاعِدٍ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ، وَقُوَّة سَاعِدٍ، وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِد! وَأَنَا بِحَمْدِ اللهِ مَجْدُودٌ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ مَحْمُودٌ.

(7) وَنَعُودُ إِلَى حَدِيثِ المَضِيرَةِ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ. يَا غُلاَمُ، الطَّسْتَ وَالمَاءَ. فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ! رُبَّمَا قَرُبَ الفَرَجُ، وَسَهُلَ المَخْرَجُ، وَتقَدَّمَ الغُلاَمُ، فَقَالَ: تَرى هذَا الغُلاَمَ؟ إِنَّهُ رُومِيُّ الأَصْلِ، عِرَاقِيُّ النَّشْءِ. تَقَدَّمْ، يَا غُلاَمُ، وَاحْسُرْ عَنْ رَأْسِكَ، وَشَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ، وانْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ، وَافْتَرَّ عَنْ أَسْنَانِكَ، وَأَقْبِلْ، وَأَدْبِرْ. فَفَعَلَ الغُلاَمُ ذَلِكَ. وَقَالَ التَّاجِرُ: باللهِ، مَنِ اشْتَرَاهُ؟ اشْتَرَاهُ، وَاللهِ، أَبُو العَبَّاسِ مِنَ النَّخَّاسِ. ضَعِ الطَّسْتَ، وَهَاتِ الإِبْرِيقَ. فَوَضَعَهُ الغُلاَمُ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ وَقَلَّبَهُ وَأَدَارَ فِيهِ النَّظَرَ، ثُمَّ نَقَرَهُ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلى هَذَا الشَّبَهِ، كَأَنَّهُ جُذْوَةُ اللَّهَبِ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ! شَبَهُ الشَّامِ، وَصَنْعَةُ العِراقِ! لَيْسَ مِنْ خُلْقَانِ الأَعْلاَقِ! قَدْ عَرَفَ دُورَ المُلُوكِ ودَارَهَا! تَأَمَّلْ حُسْنَهُ! وَسَلْنِي مَتَى اشْتَرَيْتُهُ؟ اشْتَرَيْتُهُ، واللهِ، عَامَ المَجَاعَةِ، وَادَّخَرْتُهُ لِهَذِهِ السَّاعَةِ. يَا غُلاَمُ، الإِبْرِيق فَقَدّمه. وَأَخَذه التَّاجِرُ فَقَلَّبَهُ؛ ثُمَّ قَالَ: وَأُنْبُوبُهُ مِنْهُ! لاَ يَصْلُحُ هَذا الإِبْرِيقُ إِلَّا لِهَذا الطَّسْت؛ وَلا يَصْلُحُ هَذا الطَّسْتُ إِلَّا مَعَ هَذَا الدَّسْتِ؛ وَلاَ يَحْسُنُ هَذا الدَّسْتُ إِلَّا فِي هَذا البَيْتِ؛ وَلاَ يَجْمُلُ هذَا البَيْتُ إِلاَ مَعَ هَذا الضَّيْفِ. أَرْسِلِ المَاءَ، يَا غُلاَمُ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الطَّعَامِ. باللهِ تَرى هَذَا المَاءَ مَا أَصْفَاهُ أَزرَقُ كَعَيْنِ السِّنَّوْرِ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ البِلَّوْرِ! اسْتُقِيَ مِنَ الفُرَاتِ، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَاتِ، فَجَاءَ كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ. وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي السَّقَّاءِ، الشَّأْنُ فِي الإِنَاءِ! لاَ يَدُلُّكَ عَلَى نَظَافَةِ أَسْبَابِهِ أَصْدَقُ مِنْ نَظَافَةِ شَرَابِهِ.

(8) قَالَ أَبُو الفَتْحِ: فَجَاشَتْ نَفْسِي، وَقُلْتُ: قَدْ بَقِيَ الخَبْزُ وآلاتُهُ، وَالخُبْزُ وَصِفاتُهُ؛ وَالحِنْطَةُ مِنْ أَيْنَ اشْتُرِيَتْ أَصْلًا، وَكَيْفَ اكْتَرَى لَهَا حَمْلًا، وَفِي أَيِّ رَحىً طَحَنَ، وَإِجَّانَةٍ عَجَنَ، وَأَيَّ تَنُّورٍ سَجَرَ، وَخَبَّازٍ اسْتَأْجَرَ؛ وَبَقِيَ الحَطَبُ مِنْ أَيْنَ احْتُطِبَ، وَمَتَى جُلِبَ، وَكَيْفَ صُفِّفَ، حَتَّى جُفِّفَ؟ وَحُبِسَ، حَتَّى يَبِسَ. وَبَقِيَ الخَبَّازُ وَوَصْفُهُ، وَالتِّلْمِيذُ وَنَعْتُهُ، وَالدَّقِيقُ وَمَدْحُهُ، وَالْخَمِيرُ وَشَرْحُهُ، وَالمِلْحُ ومَلاَحَتُهُ. وَبَقِيَتِ السُّكُرَّجاتُ مَنِ اتَّخَذَها، وَكَيْفَ انْتَقَدَهَا، وَمَنْ عَمِلَها؟ والخَلُّ؛ كَيفَ انْتُقِيَ عِنَبُهُ، أَو اشْتُرِيَ رُطَبُهُ، وَكَيفَ صُهْرِجَتْ مَعْصَرَتُهُ؟ وَاسْتُخْلِصَ لُبُّهُ، وَكَيْفَ قُيِّرَ حَبُّهُ، وَكَمْ يُساوِي دَنُّهُ؟ وَبَقِيَ البَقْلُ، كيفَ احْتِيلَ حَتَّى قُطِفَ؟ وَفِي أَيِّ مَبْقَلَةٍ رُصِفَ؟ وَكَيْفَ تُؤُنِّقَ حَتَّى نُظِّفَ؟ وَبَقيتِ المَضِيرَةُ كَيْفَ اشْتُرِيَ لَحْمُها؟ وَوُفِّيَ شَحْمُهَا؟ ونُصِبَتْ قِدْرُها، وَأُجِّجَتْ نَارُها، وَدُقَّتْ أَبزَارُها، حَتَّى أُجِيدَ طَبْخُها وَعُقِّدَ مَرَقُها؟ وَهذَا خَطْبٌ يَطُمُّ، وأَمْرٌ لا يَتِمُّ! فَقُمْتُ. فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: حَاجَة أَقْضِيها.

(9) وَخَرَجْتُ نَحْوَ البَابِ، وَأَسْرَعْتُ فِي الذَّهَابِ، وَجَعَلْتُ أَعْدُو، وَهُوَ يَتْبَعُني، وَيَصِيحُ: يَا أَبَا الفَتْحِ، المَضِيرَةَ! وَظَنَّ الصِّبْيَانُ أَنَّ المَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي، فَصاحُوا صِياحَهُ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ، مِنْ فَرْطِ الضَّجَرِ. فَلَقِي رَجُلٌ الحَجَرَ بِعِمامَتِهِ، فَغَاصَ فِي هامَتِهِ. فَأُخِذْتُ مِنَ النَّعَالِ بِما قَدُمَ وَحَدُثُ، وَمِنَ الصَّفْعِ بِمَا طَابَ وَخَبُثَ. وَحُشِرْتُ إِلَى الحَبْسِ، فَأَقَمْتُ عامَينِ فِي ذلكَ النَّحْسِ. فَنَذرْتُ أَلَّا آكُلَ مَضِيرَةً ما عِشْتُ! فَهَلْ أَنَا فِي ذَا، يَا آلَ هَمْذَانَ، ظَالِمُ؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَام: فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ، وَقُلْنا: قَدِيمًا جَنَتِ المَضِيرةُ عَلَى الأَحْرَارِ، وَقَدَّمَتِ الأَرَاذِلِ عَلى الأَخْيارِ.

حول النص

حياة بديع الزمان وعصره

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين، ويعرف باسم بديع الزمان، ولد سنة 358هـ _ وتوفي سنة 398هـ. أصله من همذان وإليها يُنسب. وهو من أدباء العصر العباسيّ.

وكان ذكيًّا قويّ الذاكرة، وقد يحفظ خمسين بيتا من سماعها للمرة الأولى، خفيف الروح، صاحب فكاهة، قويّ النفس، حلو الصّداقة، مُرَّ العداوة.

وكان شاعرًا وناثرًا. وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر. أما نثره فكان قسمين: قسم هو رسائل إخوانيّة، و قسم آخر هو المقامات.

فنّ المقامة في الأدب العربي

المقامة ضربٌ جديد من الأدب ابتكره بديع الزمان الهمذانيّ. وهي نوع من الحكايات القصيرة، وهي عند الهمذانيّ تعتمد على المحاورة بين شخصين أحدهما الرّاوي عيسى بن هشام، وهو شخصيّة تاريخيّة، والثاني أبو الفتح الإسكندريّ الذي يمثّل شخصية المكدي (المُستعطي)، وهو بطل المقامة.

وفن المقامة بشكله المعروف، والذي استمرّ حتّى مطلع عصر النهضة _ فلا شكّ أنّ بديع الزمان الهمذانيّ هو الذي أعطاه هذا الإطار الفنيّ. والذي استمرّ في القديم عند الحريريّ، والسّيوطي، وابن الجوزيّ، والقلقشنديّ، أمّا في مطلع عصر النّهضة فظهر عند أحمد فارس الشِّدياق، ومحمد المويلحي.

التّعريف بالمقامة

المقامات لغة جمع مقامة، وهي اسم للمجلس أو للجماعة من النّاس في المجلس، وسُمِّيت الأحدوثة _مجازًا_ مقامة لأنّها تُذْكَرُ عادة في مجلس واحد يجتمع فيه النّاس لسماعها، والأحدوثة هي ما يتحدّث به النّاس من الكلام المنقول.

وأمّا المقامة (اصطلاحًا) فهي: حكاية قصيرة مبنيّة على الكُدية (الاستعطاء)؛ وعناصرها عند بديع الزمان ثلاثة:

1. راوية ينقلها عن مجلس تحدُث فيه، وهو عيسى بن هشام، وهو كما ذُكِر سابقًا شخصيّة حقيقيّة.
2. مُكدٍ، وهو بطل الحكاية، وتدور الحكاية حوله وتنتهي عادة بانتصاره، وهو عند بديع الزمان أبو الفتح الإسكندريّ، الذي يُرَجّحُ أنّه أحد الساسانيين، وهم طائفة من الأدباء السّيارين؛ ويُسمّون بالساسانيين نسبة إلى ساسان أحد الأمراء، حرمه أبوه من المُلك فهام على وجهه محترِفًا الكُدية، معتمدًا على فصاحته وثقافته.
3. مُلْحَة أو عُقدة تُحاك حولها المقامة على شكل حكاية تدور في مقامة (مجلس) واحدة لا تتعدّاها إلّا ما نَدَر. وأمّا موضوعاتها فمختلفة، منها ما هو أدبيّ، أو لُغويّ، أو فقهيّ، أو فُكاهيّ، أو حماسيّ، أو سُخرية.

خصائص مقامات الهمذانيّ الفنيّة

1. مقامات الهمذانيّ قصيرة تحوي موضوعًا واحدًا.
2. يُكثر بديع الزّمان من الهجاء الاجتماعيّ، وتبيان مساوئ المجتمع بقصد التّهكّم على أصحاب هذه المساوئ، وبقصد إطراف الآخرين بتصويرها واستعراضها.
3. تقوم المقامة على السّجع، وكثيرًا ما تكون السّجعات بين كلمات العبارتين المُتتابعتين، كقوله في المقامة المضيريّة عندما وصف التّاجر زوجته: "وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي لَحًّا، طِينَتُها طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَأُرُومَتَها أُرُومَتِي".
4. تعتمد المقامة على الجناس بكل صوره المعروفة في عصره.
5. تقوم المقامة على السّرد والحوار والقصّ.
6. جنوح الهمذانيّ للغريب من اللّغة؛ لأنّ هدف المقامة الأساسي تعليميّ وليس فنّيًّا.
7. الاعتماد على الأمثال، والاقتباس من القرآن الكريم، وتضمين الشّعر، وفصيح الكلام لمن سبقه، كقوله في المقامة المضيريّة: "وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ!"، وهذا مما يُؤثَرُ عن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.
8. الاعتناء بالوصف، وذلك من أجل أن يحشد أكبر قدر من الألفاظ بغرض أن يتعلّمها الكتاب الناشئون، وهذا مما أفقد المقامة جزءًا كبيرًا من جمالها الفنيّ.

محاور المقامة المضيريّة

يمكن تقسيم محاور المقامة أقسامًا ثلاثة:

أ. مقدّمة المقامة: وفيها يقدّم بديعُ الزّمان الرّاوي عيسى بن هشام ليروي ما تمّ معه ومع أبي الفتح عندما دُعِيا إلى مضيرة ببغداد، واصفًا هذه المضيرة، واستمرّت هذه المقدّمة حتى قوله: "دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ".

ب. وَصْفُ ما تمّ مع أبي الفتح عندما دعاه أحد تُجَّارِ بغداد إلى مضيرة، وبيان أنّ هذه الدّعوة كانت آخر عهد له بالمضيرة، وأكلها، وتمّ في هذا المحور وصف التّاجر كل ما يتعلّق ببيته. وأهمّ أجزاء هذا المحور:

1. وَصْفُ زوجته: من قوله: "دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ"، حتى قوله: "وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ".
2. وَصْفُ المحلة: من قوله: "وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ"، حتى قوله: "سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ!".
3. وَصْفُ باب داره: من قوله: "وَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ دَارِهِ"، حتى قوله: "بِحَيَاتِي لا اسْتَعَنْت إلا بِهِ عَلى مِثْلِهِ!"
4. وَصْفُ حلق الباب: من قوله: "وَهَذِهِ الحَلَقَةُ تَرَاهَا؟"، حتى قوله: "فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلاَّ الأَعْلاَقَ".
5. وَصْفُ دهليز الدّار: من قوله:"ثُمَّ قَرَعَ البَابَ"، حتى قوله: " وَفِي مِثْلِ هَذهِ الأَحْوَالِ مَحْمُودٌ".
6. وَصْفُ ما يتعلّق بتناول المضيرة من طست وماء وإبريق وغلام: من قوله: "وَنَعُودُ إِلَى حَدِيثِ المَضِيرَةِ"، حتى قوله: "لاَ يَدُلُّكَ عَلَى نَظَافَةِ أَسْبَابِهِ أَصْدَقُ مِنْ نَظَافَةِ شَرَابِهِ".

ج. الخاتمة: وفيها بيان موقف أبي الفتح من التّاجر، وبيان ضيقه منه، وحديث أبي الفتح لنفسه عمّا بقي مما يمكن أن يصفه التّاجر، وفيها بعد ذلك هروب أبي الفتح وما لحق به من الصّفع والحبس، مما جعله يقول: فَنَذَرْتُ أَلَّا آكُلَ مَضِيرَةً ما عِشْتُ!"، ومما جعل أصحابه يتّخذون الموقف نفسه بقولهم: " فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ".

المعجم والدّلالة

الرقم	المفردات والتراكيب	المعنى
.1	المضيرة	لحمٌ يطبخ باللبن المضير، أي: الحامض.
2	تثني على الحضارة	فيها تأنُّق أهل الحضر
3	تترجرج	تهتزُّ
4	الغَضَارَةِ	القصعة الكبيرة
5	تُؤْذِنُ بِالسَّلاَمَةِ	الإسراف فيها لا يضرّ آكلها لطيبها وإتقان صنعها وفائدتها
6	تَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ بِالإِمَامَة	لو طبخها معاوية لشهدوا له بالإمامة (الخلافة)
7	قَصْعَةٍ	وعاء
8	يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ	يَزِلُّ عنها البصر لملاستها ونقاوتها
9	يَمُوجُ فِيهَا الطَّرْفُ	سكبت المضيرة بالقصعة بذوق
10	الخِوانِ	منضدة الطّعام
11	ثلب	ذمّ وشتم وسبَّ
12	تَنَحَّى	ابتعد
13	مُسَاعَدَةَ الإِخْوَانِ	موافقتهم
14	تَحَلَّبَتْ الأَفْوَاهُ	سال ريق الأَفْوَاهُ شوقًا إليها.
15	تَلَمَّظَتْ الشِّفَاهُ	تحرّكت كأنها تتذوَّق طعامًا
16	المقت	الكُره والبغض
17	الغريم	صاحب الدَّيْن
18	لزمني	لَحِقَ بي وَلَم يُفارقِني
19	الرَّقيم	لوح من بلاط منقوش عليه كتابة؛ وأصحاب الرَّقيم والكهف: بضعة من أشخاص أنامهم الله في كهفهم ثلاث مئة وتسع سنوات ثم أيقظهم، وكان معهم كلب طول هذه المدّة
20	الخِرْقَة	قطعة نسيج تعقدها المرأة في وسطها أثناء مكوثها في المطبخ؛ لتدفع عن ثوبها رشاش الماء والطعام.
21	تَدُورُ فِي الدُّورِ	تعتني بغرف البيت الكثيرة

22	التَّنُّورِ	موقدٌ يُخبَزُ فيه العجين
23	القُدُورِ	جمع قِدْر، وعاء لطبخ الطَّعام
24	تَنْفُثُ	تنفخ
25	الأَبْزَارَ	جمع بزر، كالصّنوبر، وكبش القرنفل، والفلفل، ونحو ذلك مما يطيب به الطَّعام (البهارات)
26	المُسَاعَدَةَ	الموافقة
27	حَلِيلَتِهِ	زوجته
28	الظَّعِينَة	المرأة المُسافرة في الهودج، يقصد هنا امرأته
29	مِنْ طِينَتِهِ	من مستواه الاجتماعيّ.
30	ابْنَةُ عَمِّي لَحًّا	مصدر، لحّت القرابة أي الْتَصَقَتْ وَالْتَحَمَتْ، وهي هنا تعني ابنة عمّه شقيق أبيه.
31	الأُرُومَة	الأصل.
32	صدَّعني	أصاب رأسي بالصداع وأوجعني.
33	يَتَغايَرُ	يغار بعضهم من بعض.
34	السِّطَّةِ	الوسط، وهي عادة الجوهرة الكبيرة في العِقد، ويقال لها: واسطة العِقد.
35	القِلادة	العِقد، يقصد وسط المحلّة.
36	تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ	تَنَهَّد، كناية عن الرَّاحة والاطمئنان.
37	الطَّاقَةِ	الفقر.
38	على هذِهِ الطَّاقَةِ	القَنْطَرة المَعْقُودَة فوق الباب.
39	البِرْكارِ	أداة تُرْسَمُ بها الدَّائرة (البيكار).
40	السَّاجُ	شجرٌ كبيرٌ من شَجَرِ الهند.
41	مَأْرُوضٌ، عَفِنٌ	أَكَلَتْه الأرَضة، فهو منخورٌ عَفِنٌ مُهترِئ بالرُّطوبة.
42	أَنَّ	أحدث صوتًا لثقله.
43	الدَّرُّ	الحليب.

44	للهِ دَرُّه!	ما أحسنه!
45	لا اسْتَعَنْت إلا بِهِ عَلى مِثْلِهِ	أي لا تصنَعْ بابًا إلا عندَه.
46	الحَلَقَةُ	أداة معدنيّة تُعَلَّقُ في الباب؛ لِيُقْرَعَ بها
47	سُوقِ الطَّرَائِفِ	السُّوق التي تباع فيها الأشياء النَّفيسة
48	مُعِزِّيَّة	نسبة إلى معزِّ الدَّولة البويهيّ، وقيل: تنسب إلى المعز لدين الله، وكان حمل معه إلى الشَّام ومصر حين استولى عليهما أموالًا جمّة، فشاع تداولها، وشهر اسمها.
49	الشَّبَهِ	النُّحاس الأصفر.
50	الرَّطْل	بفتح الرّاء وكسرها، 480درهمًا، وهو نحو 1536 غرامًا، (القاموس المحيط).
51	اللَّوْلَب	مسمار مخروط خرطًا حلزونيًّا (برغي)
52	الأَعْلاَق	جمع عِلق (بالكسر) الشيء النفيس.
53	المَعَارِج	السَّلالم التي يصعد منها إلى أعلى الدّار (الدَّرج أو السّلّم وما إلى ذلك
54	عَقَدَهَا	تملّكها بعقد مكتوب
55	الصَّامِتِ	المال من الذهب والفضّة ونحوهما، وعكسه الناطق، وهو المال من الماشية والإبل ونحوهما من الحيوان، يقال: له من المال صامت وناطق
56	الخَلَف	الذّريَّة من الأولاد
57	الزّمْرِ	سماع الغناء
58	النَّرد	لعبة الطَّاولة
59	القَمْرِ	الخسارة في القمار
60	أَشفق	خاف، خشي
61	الضَّجَرِ	الضِّيق واليأس من الفرج
62	لاَ تَنِضُّ	لا تروج تجارتها، كاسدة

63	نَسِيَّةَ	دَيْنٌ مؤجّل السَّداد
64	المُدْبِرُ	المُفتقر، الشّقي، فهو يظنُّ أنّ النَّسِيَّة هديَّة.
65	وَثِيقَةً بِأَصْلِ المَالِ	سند بالدَّيْن
66	عَقَدَهَا لِي	تعهَّد فيها لي بالوفاء
67	اقْتِضَائه	مطالبته بقضاء الدَّيْن
68	رَقَّت حَاله	كناية عن الفقر (افْتَقَرَ)
69	أَنْظَرْتُهُ	أمهلتُهُ، وأجَّلتُ الدَّيْن
70	دَرَّجْتُهُ بِالمُعَامَلاتِ	جَرَرْتُهُ إلى البيع شيئًا فشيئًا
71	الجَدّ وَالْبَخْت	الحظّ
72	مَجْدُودٌ	سعيد الحظّ
73	الطَّسْتَ	الطَّشت
74	احْسُرْ عَنْ رَأْسِكَ	اكشف
75	انْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ	انزع ثيابك عن ذراعك
76	افْتَرّ عَنْ أَسْنَانِكَ	ابتسم ليكشف عن أسنانك
77	النَّخَّاسِ	بائع العبيد
78	الدَّسْتِ	المجلس المرتفع في البيت، يقال: دست الحكم؛ وهو أفضل مجلس في البيت.
79	السِّنَوْرِ	الهرّ، وكثير من أهل بغداد كانوا يفضّلون الشُّرب من ماء الفرات لأنّه أعذب من ماء دجلة، مع أنَّ بغداد مبنيّة على نهر دجلة مباشرة.
80	البَيَاتِ	ترك الماء في الآنية مدة الليل حتى يترسب ما فيه من عَكر
81	لِسَانِ الشَّمْعَةِ	لهبها المضيء
82	السِّقاءِ	الذي ينقل الماء
83	الأَسْبَاب	الأدوات التي حُمل واختزن فيها.
84	الرَّحى	الطاّحون
85	الإِجَّانَة	الإناء الذي يُعجن فيه العجين

86	سَجَرَ التَنُّورِ	ملأه وقوداً وأحماه
87	التِّلْمِيذُ	التِّلْمِيذُ هنا تِلْمِيذ الخبّاز أي صبيُّه، ولا يزال الفرّان في بغداد يسمى أستاذًا.
88	السُّكُرَّجاتُ	الصحاف التي توضع فيها ألوان الطعام
89	الرّطَبُ	التَّمر
90	صُهْرِجَتْ	طلي أسفلها وجدرانها بالطِّين والكلس، ويسمى هذا الطلاء بالنّوْرة (القطران) وأخلاطها
91	الحَبُّ	الخابية، أو الجرَّة الكبيرة
92	قُيِّرَ	طُلِي بالقار (الزفت)
93	يَطُمُّ	يعظم ويتفاقم
94	البَقْلُ	النَّبت أو الخضرة كالسّلق واللوبياء ونحوها
95	المَبْقَلَةِ	المكان المُعدُّ لخزن أنواع البقل
96	رصف	وضع بعضه إلى جانب بعض
97	أَعْدُو	أركض
98	هامَتِهِ	رأسه
99	أَخِذْتُ مِنَ النَّعَالِ	ضربني النّاس بالنِّعال
100	هَمْذَانَ	بسكون الميم، والبيت اقتباس من قول الشّاعر عمرو بن براق الهمذانيّ، يقول فيه: وَكُنْتُ إذا قَومٌ غَزُونِي غَزَوْتُهم فَهَل أنا فِي ذا يال هَمْذان ظَالِم؟

شروح المحاور، وأسئلة التقويم لكلٍّ منها

المحور الأول: (المُقدّمة).... الفقرة رقم (1)

تبدأ مقدّمة المقامة بالدّيباجة التقليديّة عادة، إذ تبدأ بـ "حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشام" الرّاوي الذي يروي ما تمّ مع أبي الفتح الإسكندريّ، المنسوب إلى الإسكندريّة (قرية قرب الكوفة على الفرات)، ويصِفُه عِيسَى بْنُ هِشام بأنّه رجل الفصاحة والبلاغة، للتمهيد لما سيجري على لسانه من أنماط الغريب من اللّفظ، وفنون البلاغة، وكأنّها الغرض الرئيسيّ من المقامة.

وبعد ذلك يبدأ الرّاوي عِيسَى بْنُ هِشام بسرد الأحداث عندما أخبرنا أنهما دُعِيا إلى مضيرة بالبصرة، ومعهم بعض أصحاب أبي الفتح، مسترسلًا بوصف هذه المضيرة التي هي لحمٌ مطبوخ باللّبن الحامض قليلًا بأجمل ما يمكن أن تكون عليه مضيرة. فهي تثني على الحضارة بما يظهر فيها من تأنُّق أهل العصر، وتهتزُّ في القصعة الكبيرة، ولشدّة أثرها في النّفوس جعلته يقول: إنّها لو كانت زمن معَاوِيَةَ_ رَحِمَهُ اللهُ_ لشهد الناس له بِالإِمَامَة، بعد أن بايعوا علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_ ولما لجأ النّاس إلى الصّراع على السُّلطة. ويستمرُّ أبو الفتح في وصف هذه المضيرة بكلّ دقّة وتفصيل، لأنّ الوصف يعطي الكاتب فرصة استعراض أكبر قدر من مفردات اللّغة وغريبها.

فالمضيرة في وعاء لا يكاد النّظر يستقرُّ عنده لملاسته ونقاوته، ويموج الطرف فيها لأنّها سُكِبت بالقصعة بذوقٍ وأناة. ولما أخذت المضيرة مكانها من منضدة الطّعام، وتعلّقت بها القلوب، وبدأت الشّفاه تتلمّظ، والأفواه تتحلّب، حدثت مفارقة عجيبة؛ تلك هي أنّ أبا الفتح بدأ يذمُّها ويشتمها ويسبّها ويلعن صاحبها ومن طبخها، وكلّ ما يتّصل بها، أو من يتّصل بها. ولم يُصدِّق احدٌ أنّ هذا موقف جادٌّ من أبي الفتح، وليس هذا هو المعهود عنه، وهو المتسوِّل المُكدي الذي يبحث عن طعام طيّبٍ، فكيف يرفض مثل هذه الوجبة؟! فظنَّ القوم أنّ الأمر مزاح، فإذا هو غير ذلك، جدّ وكلّ الجد.

وهنا تضامن القوم معه فرفعوا المضيرة، وساعدوه على هجرها، والتّهوين عليه من شأن هذه المصيبة بضياع وجبة المضيرة، التي ارتفعت القلوب معها عندما رفعوها،

وسافرت العيون خلفها، وتلمّظت الشّفاه وتحلّبت الأفواه، وَاتَّقَدَتْ لفراقها الأَكْبَادُ، وسافر الفؤاد خلفها.

وهنا نلاحظ الغرض التعليميّ عند بديع الزّمان في تعليم النّاشئة استخدام الفعل مع الاسم المناسب: فالشّفاه تتلمّظ، والأَكْبَادُ تتَّقِدُ، وهكذا بعد ذلك طلبوا منه توضيح موقفه، فخشي أنّه إن أخبرهم أن يضيع وقتهم، وأن يمقتوه لأنّه قطع نصيبه ونصيبهم من وجبةٍ لا تُعوّض. إلّا أنّهم أصرّوا على الاستماع، بدأ بعدها بسرد ما حدث مع أحد تُجّار بغداد ذات يوم.

تقويم ذاتي رقم (1)

أخي الطالب: حاول أن تجيب عن أسئلة التقويم الذاتيّ قبل الرّجوع إلى الإجابات في نهاية الشّرح لتكشف مدى استيعابك، وللتركيز على ما لم تستوعبه جيدًا.

1. ما دلالة قوله: "وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ، رَحِمَهُ اللهُ بِالإِمَامَة"؟
2. من عيسى بن هشام، ومن أبو الفتح الإسكندريّ؟

إجابة تقويم ذاتي رقم (1)

1. أي لجودتها، وإتقان طبخها، لو كانت في الزّمن الأوّل وقدّمها معاوية للنّاس، لشهدوا له بالإمامة، ولما احتاج إلى منازعة علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_.
2. عيسى بن هشام، شخصيّة حقيقيّة تاريخيّة، يمثّل الرَّاوي في المقامة. وأبو الفتح أحد المُكدين السّاسانيّين، وأرجح الأقوال أنّه أحد هؤلاء المُكدين، جعله الهمذانيّ بطل المقامة. الذي تدور معه أحداث المقامة ليُجريَ على لسانه الفصاحة والبلاغة وسرد الأحداث وما بسائر المقامة من قيم لغويّة وبلاغيّة.

.....

المحور الثاني... الفقرة رقم (2)

يبدأ هذا المشهد بلقاء بين شخصين؛ كلّ منهما نقيض الآخر: تاجر يحب أن يستمتع بذكر كلّ ما يملك، وكل ما يتّصل به، وأبو الفتح الذي جلّ همّه الوصول إلى هدفه في أكل المضيرة، ولكنّ الطريق إلى ذلك تبدو ممتدّة وكأنها بلا نهاية.

دعاه التّاجر في بغداد إلى مضيرة، ولم يفارقه وكأنّ له دَيْنًا عليه، أو كأنّه كلب أهل الكهف الذي لازم الفِتية المؤمنة، وأصرَّ التّاجر على دعوته.. وفي نهاية المطاف، وبعد الإلحاح في الدّعوة استجاب أبو الفتح، ويبدو أنّ كلًّا منهما له غاية، ولكن من منهما حقّق غايته؟ التّاجر يعلم فصاحة أبي الفتح، ويعلم أنّه متنقِّلٌ جوّال، فيستطيع أن يذيع صيت هذا التّاجر، وينشر اسمه في كلِّ الآفاق، فيُشبع بذلك رغبة التّاجر في الشُّهرة، وغروره وحبه للظهور الارستقراطيّ، والتّفاخر الاجتماعيّ. وأمّا أبو الفتح فحظُّه من الدُّنيا مضيرة يأكلها مقابل ما سيسمع من التّاجر، وما سيرى، وإن كان رأى كل شيءٍ في دار التّاجر إلّا المضيرة.

جعل التاجر طول الطريق يثني على زوجته، ويفديها بروحه، ويصفُ مهارتها في الطّبخ، وكيف أنّها _والخرقة في وسطها_ تدور بين غرف الدّار والتّنّور ذهابًا وجيئة، تنفخ النّار بفمها، وتدقّ البهارات بيديها، واصفًا كيف ترك الدّخان غبارًا خفيفًا على وجهها، فأثّر في خدّها الصّقيل مكوِّنًا منظرًا تحار فيه العقول والعيون. وليس هذا فحسب، جمالٌ خارجيّ، وحبٌّ داخليّ، وقرابة تجعل السّعادة على أكمل ما تكون، فهي ابنة عمّه شقيق أبيه، فهي على ألصق ما تكون القرابة، ويحبُّها وتحبُّه، وطبقتهما الاجتماعية واحدة، والأصل واحد، إلّا أنها تتفوق عليه في الخُلق والخَلق. وهذا كله قد جاء بفضل الله الذي أكمل سعادته في الدُّنيا بزوجة مثلها.

تقويم ذاتي رقم (2)

1. هل تلمح في حديث أبي الفتح عن زوجته حرص الهمذانيّ على تصوير الواقع الاجتماعي؟ بيّن ذلك بإيجاز.
2. ظهرت بعض ملامح الحضارة عند أهل القرن الرابع الهجري في طعامهم، وضّح ذلك.

.....

إجابة التقويم الذاتي رقم (2)

1. نعم، فقد حرص التّاجر على جعل زوجته في أعلى درجات الجمال الحسّيّ، حتى وهي تعمل، وتنفخ النّار، والدّخان يغبّر وجهها الجميل، وهي قريبته، وهي من طبقته الاجتماعية، فكل عوامل السّعادة اجتمعت عنده: امرأة جميلة، يحبّها وتحبّه، قرابة لصيقة، وبعد ذلك مهارة في العمل والطّبخ.. فماذا يريد أكثر من ذلك؟

   ويلاحظ كذلك حرص التّاجر على بيان كيف أنّ كل ما يتّصل به يكون دائما على أتمّ وأكمل ما يكون، وكأنّه يقول: "إنّ طبقته التُّجّار هي أعلى الطّبقات في كلّ شيء.
2. ظهر هذا في نوع الطّعام: مضيرة مطبوخة باللّبن، وظهر حرصهم على تطييب الطّعام بأنواع المُطيّبات من الأبزار المختلفة، والطّبخ في التّنّور، وإبراز الذوق والتّأنُّق في الطّبخ.

.....

هذا محور يستعرض فيه التّاجر وصف محلّته، أي الحي الذي تقع فيه داره، ثم يسترسل في وصف الدار، وكيفيّة حصوله عليها ... الفقرة رقم (3)

وبعد أن أبدى أبو الفتح ضيقه من الاستماع إلى التّاجر الذي صدَّعه بصفات زوجته بدأ بوصف المحلّة، وبعدها وصف الدّار، وهما كعادة التّاجر في بيان أنّ ما يمتلكه أفضل الأشياء، فالمحلّة أشرف محالّ بغداد، ويتنافس الأخيار في نزولها، وَيَغيرُ الكِبَارُ بعضهم من بعض للحلول فيها، إلّا أنّها تكون نهاية المطاف للتّجّار. ويُلاحظ هنا اضطراب القيم الاجتماعية، بحيث برز المال معيارًا هامًّا في تصنيف رُتب النّاس الاجتماعيّة. وإذا كانت المحلّة أشرف محالّ بغداد فداره هي نقطة الارتكاز في الحيّ كلّه، وإذا كانت المحلّة قلادة فدارُه سطّتها، وكأنّها الجوهرة الكبيرة في العقد الثمين. وقد أنفق عليها مالكها الأول أموالًا طائلة، ومع أنّ تقدير أبي الفتح لم يعجبه إلّا أنّه تنفّس الصّعداء حتى انتهيا إلى داره، فيبدأ بوصف الباب، ونُخصِّص له القسم الثالث.

.....

تقويم ذاتي رقم (3)

1. وضّح كيف كان المجتمع البغداديّ ينقسم إلى فئات اجتماعيّة من خلال محالّه ودوره.

إجابة التقويم الذاتي رقم (3)

1. وصف التّاجر محلّته بأنّها أشرف محال ببغداد، كلّهم يسعى للسكنى فيها، والنّاس يغار بعضهم من بعض للإقامة فيها، لكنّها لا تكون في النّهاية إلّا للتّجّار وذلك لغلاء العيش فيها. وبيّن كيف أنّ داره هي أجمل بيوت هذه المحلّة.

يصف التّاجر في هذا القسم باب داره، بوصف فيه استقصاء ودقّة. .... الفقرة رقم (4)

يبدأ التّاجر بوصف داره سائلًا أبا الفتح بلغة فيها تذلُّل وخضوع بقوله مخاطبًا إيّاه: "يا مولاي"، فأبو الفتح سيّد ويتّضح هنا انكسار نفوس هذه الفئة من النّاس التي تذلّ نفوسها مقابل أن تفيد شيئًا، ولو قليلًا، من مثل أبي الفتح الإسكندري الذي سيتحدّث عن هذه الدّار وجمالها، والتّاجر وثروته، وتميُّزه عن الناس كلّهم. إلا أنّ التّاجر بدأ يسأل، وهو الذي يجيب؛ لأنّه أدرك أن من هو مثل أبي الفتح لا تدخل هذه الأشياء والقيم في حساباته. فقد أنفق التّاجر على الطّاقة فوق الطّاقة (لاحظ الجناس التّام)، وَوَرَاءَ الفَاقَةِ والفقر. ثمّ يصف دقّة صنعتها، وحُسن تَعْرِيجَاتِهَا وغير ذلك من دقائق الصَّنعة فيها.

ولما وصل الباب بيّن حذق النّجّار، ودقّة الصَّنعة فيه، وحسن اختيار خشبه. فسأل أبا الفتح عن عدد قطع الخشب الذي استخدم في الباب؟ إلّا أنّه أجاب فورًا قائلًا: "وقُلْ: وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ؟"، فأجاب هو بقوله: إنّ الباب من شجر مميّز من الهند، لم تأكله الأرضة، ولم تلحق به الرّطوبة والعفونة، صلبٌ بحيث إذا نقر أحدث طنينًا، وإذا حُرّك أحدث صوتًا يُشبه الأنين لثقله، ويكفي أنّه صُنْع أبي إسحاق بن محمد البَصْريّ، الخبير النَّظِيف، خَفِيفُ اليَدِ في الصَّنعةِ.

وننوّه دائمًا إلى طبيعة التّاجر الذي يمدح كل من يصنع له شيئًا، أو من يقتني من عمله شيئًا، لا حُبًّا في النّاس، بل إرضاء لشهوة الغرور التي تجعله يرى أنّ كل الأشياء التي عنده وكل ما أو مَن يتّصل بها هي الأمثل، (أرستقراطيّة النظرة)، وبعدها يطلب إلى أبي الفتح الإسكندريّ الذي حظّه من الدّنيا أن يأكل مضيرة _أن يصنع باب داره عنده.

تقويم ذاتي رقم (4)

1. كثر الصّنّاع في بغداد بحيث أصبح بعضهم مميّزًا، وضّح ذلك بإيجاز.

.....

إجابة التقويم الذّاتي رقم (4)

1. لكثرة الصُّنّاع ببغداد يحار المرء عند مَن يصنع باب داره؛ ولذلك نصح التّاجر أبا الفتح أن يصنع باب داره عند صانع ماهر هو أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ مَحَمَّدٍ البَصْريّ الأمين الماهر الخفيف اليد في الصّنعة.

القسم الرابع من المحور الثاني.... الفقرة رقم (5)

يصف التّاجر في هذا القسم حلقة الباب التي تستخدم لطرق الباب عند الدّخول، وإنّما خصصنا هاهنا بقسم خاص قائم بذاته لدقّة وصفه لها، وبيان صنعتها، ولما تشير إليه من تطوّر الصّناعة في بغداد.

فالحلقة لم تأتِ إلا صدفة من سوق الطّرائف الذي يجتمع فيه التّجّار الذين يقتنون التُّحف والنّادر من الأشياء ليبيعوها إلى أثرياء بغداد، والبائع يُعرَف بأبي عمران الطَّرَائِفِيِّ، المنسوب إلى حرفته ببيع الطّرائف من الأشياء، واشتراها التّاجر بثلاثة دنانير مُعِزِّيَّة (نسبة إلى أموال مشهورة ذهبيّة تنسب إلى معزّ لدين الله الفاطميّ، أو لمعز الدّولة البويهيّ) وهي حلقة مميّزة، لأنّها مصنوعة من النُّحاس وتدور في لولب... إلى غير ذلك من صفات تبيّن تميُّز هذه الحلقة. ودائما وصيّته لأبي الفتح أن يشتري حلقة باب بيته من أبي عمران الطَّرَائِفِيِّ؛ لأنّه لا يبيع إلّا الثمين الذي تتعلق به النَّفس من نفائس الأشياء.

تقويم ذاتي رقم (5)

1. يظهر تميّز أهل بغداد من خلال حديث التّاجر عن الحلقة، بيّن ذلك.

.....

إجابة التقويم الذاتي رقم (5)

1. في بغداد سوق لمختلف أنواع الصّناعات، فلكلّ طبقة من النّاس بضاعة تتناسب مع طبقته الاجتماعيّة أو مع ثروته. فهناك سوق للطرائف النّفيسة، وثمن الحلقة ثلاثة دنانير معزيّة، فيها ثلاثة أرطال من النُّحاس الذي جاء من بلاد الشّام، وصُنع في العراق، وتدور بلولب في الباب. فكل شيء على درجة عالية من الدّقّة والإتقان.

.....

القسم الخامس من المحور الثاني / الفقرة رقم (6)

يصف التّاجر في هذا القسم طريقة تملّكه الدّار.

ويُلاحظ منذ البداية كيف أنّه يغلب على ما يملكه أن يأتيه إمّا بالصدفة، أو بالحيلة، أو بالخداع، أو زمن الغارات والمصادرات والنّكبات (جمع الثروة بطرق غير طبيعيّة)، وهذا يوضّح الاضطراب الاجتماعيّ، وتغيّر ترتيب السُّلّم الطبقي في المجتمع نتيجة للاضطراب السياسيّ وبداية تفكّك الدولة، ولم يعد للسُّلطة المركزيّة نفوذ مطلق على سائر أرجاء الدولة.

ويبدأ التّاجر بإمتاع النظر في مداخل الدّار ومخارجها أو دهليزها (الممر المؤدّي إلى الغرف) ودرجها، وغير ذلك من أجزائها.

ويسأل التّاجر أبا الفتح عن طريقة امتلاكه الدّار، وأبو الفتح ليس في هذا الوارد أبدًا، فيجيب التّاجر مبيّنًا حيلته وخداعه لشرائها.

فكان له جارٌ يُكنّى أبا سليمان واسع الثروة، عظيم الجاه، أمواله صعب خزنها، والصَّامِتِ من الذهب والفضّة عنده لا يُحصى، بنى هذه الدّار وأنفق عليها ما يليق بمقامه وثروته، فتمنّى التّاجر أن يمتلك مثلها، أو يمتلكها، وأنّى له ذلك، وهو لا يملك الثّمن اللّازم لها؟! فهنا لجأ إلى الحيلة. فبعد أن مات أبو سليمان، ترك أولادًا يحبُّون اللهو والنَّرْدِ وَالقَمْرِ، فخسروا ثروة أبيهم، فخشي أن يبيعوا الدّار، فيعيش عمره كلّه متحسّرًا عليها، فعمد إلى أثواب لا تروج تجارتها (يلاحظ هنا شدّة بخله)، إذ عمد إلى ثياب قديمة مع أنّه يريد من خلالها اقتناء الدّار، فعرضها على خَلَف جاره ببيعٍ مؤجّلٍ، مع كتابة وثيقة بأصل المال، ففعل ذلك، و التّاجر يدرك أنّ مثل هذا الخَلَف لا يُدرك ما يُحاك له، فكثير من النّاس يظنّون الحق المؤجّل السّداد هدية لا يُطْلَب ردُّها.

وهكذا بدأ يُدرِّجُهُ بالمعاملات، حتى كادت حاشيةُ حالِهِ تَرِقّ، فيُصبح فقيرًا فقرًا شديدًا، فطلب التّأجيل، فأجّله التّاجر وهكذا حتّى رهن هؤلاء الأبناء دارهم، واضطروا إلى بيعها له، فحصلت له بحظٍّ مساعدٍ، وكما قال علي _كرّم الله وجهه_ "وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِد".

تقويم ذاتي رقم (6)

1. استخدم الهمذانيّ أساليب الكناية، وتضمين الأمثال في هذا القسم بشكل واضح، اذكر أمثلة على ذلك.

إجابة التّقويم الذّاتي رقم (6)

1. استخدم الهمذانيّ "الكناية" من مثل قوله: "حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ"، وفيها أيضا استعارة، واستخدم الحكم والأمثال، من مثل قوله: "وَالمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَّةَ عَطِيَّةً"، والكناية مثل: "نَظِيفُ الأَثْوَابِ" كناية عن الأمانة، و "خَفِيفُ اليَدِ" كناية عن المهارة، وهكذا. ناهيك عن السّجع والجناس، والسّرد وغيرها، وهذه واضحة وأوسع من أن يُمثّل لها.

وفي هذا القسم يُعيدنا أبو الفتح إلى المَضِيرَةِ التي هي محور الحديث، بعد أن كاد التّاجر يُنسي أبا الفتح ويُنسينا المضيرة وأكلها. ..... الفقرة رقم (7)

فيقول التّاجر: حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، فالآن وقت المَضِيرَةِ، فطلب إلى الغلام أن يُحضر الطَّسْتَ ليغسل أبو الفتح يديه ويستعدّ للأكل، فاستبشر أبو الفتح خيرًا، فلعلّ الفرج جاء، ولعلّ الخروج من هذا البيت قد حان. فتقدّم الغلام، وهنا يستغلُّ التّاجر الفرصة ويبدأ بوصف الغلام ليريَ أبا الفتح أنّ الغلام من أفضل الغلمان: روميّ الأصل، عراقيُّ النّشأة، وأراه كُلَّ ملامح جسمه فهي على أكمل ما تكون.

ويستعرض وصف الغلام، وبيّن لنا كلّ فعل، وما يناسبه من الأسماء التي يسند إليها، من مثل: احْسُرْ عَنْ رَأْسِكَ، وانْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ....الخ

ولمّا وضع الغلام الطَّسْتُ جاء بالإِبْريق، فوضعه الغلام، وقلّبه التّاجر ودقّق النَّظر فيه ونقره، ولفت انتباه أبا الفتح إلى النُّحاس الذي صُنع منه وكأنّه جِذْوَةُ اللَّهَبِ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ، شَبَهُ الشَّامِ، وَصَنْعَةُ العِراقِ.

ويُبيّن لنا تميُّز الإبريق، لم يكتفِ بنظافة نحاسه، ودقّة صنعته، بل أراد أن يُبيِّن الطبقات الاجتماعية التي استخدمته، فهو إِبْريق دار دُورَ المُلُوكِ، ولم يخرج منها إلا بسبب المجاعة التي حدثت، فاشتراه وادَّخره لمثال أبي الفتح من الأضياف. (يلاحظ

إصراره على إعلاء شأن أبي الفتح)، فالكلّ مميَّزٌ حتى ضيفه: فالإِبْريق لا يَصْلُحُ إلّا مع هَذا الطَّسْتُ، وهذا الطَّسْتُ لا يَصْلُحُ إِلَّا مَعَ هَذَا المجلس المرتفع في البيت، والدَّسْتُ لا يَصْلُحُ إِلَّا لهَذا البَيْتِ، وَلاَ يَجْمُلُ هذَا البَيْتُ إِلاَ مَعَ هَذا الضَّيْفِ.

ولن ينسى التّاجر الماء الذي يصفه بزرقةِ عَيْنِ السِّنَّوْرِ، وبصفاء قَضِيبِ الزُّجاج، جيءَ به مِنَ الفُرَاتِ، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَاتِ ليبرد ويصفو فَجَاءَ صافيًا نقيًّا، كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ.

تقويم ذاتي رقم (7)

1. عُرفت بغداد بدقّة صناعتها، مثّل لذلك.

.....

إجابة التّقويم الذّاتي رقم (7)

1. ظهر في هذا القسم بعض الصناعات الدقيقة المُتقَنة، منها صناعة الإبريق من النُّحاس، المستورد من الشام، المُصنّع في العراق، والذي أنبوبه منه، وهو قد دار دور الملوك ...الخ، والطَّسْتُ متقن الصنعة، وأدوات الماء وأسبابه على أدقِّ وأنقى ما تكون عليه.

.....

المحور الثالث... الفقرتان رقم (8) **(9)**

بيان موقف أبي الفتح من حديث التّاجر الذي لن ينتهي. ...

لم يَعُد أبو الفتح يحتمل التّاجر أو حديثه، بل جاشت نفسه، وأدرك أنّ حديث التّاجر لن ينتهي إن استمرّ في وصف كلّ ما يتّصل بالمَضِيرة، فهو يعلم أنّ التّاجر لم يَصِف بعد الخبز وآلاته، والحنطة، ومن أين اشتُرِيَت، ومن استأجر لحملها، ومن طحنها، وفي أيّ رحىً طُحِنت، وفي أيّ إناء عُجِنت، وبقي الحطب، والملح، والخبّاز ووصفه .. إلى غير ذلك من كلّ ما يتعلق بالمَضِيرة وتجهيزها. ويُعلم من خلال ذلك استرسال بديع الزّمان في الوصف ليُعلّم النّاس كلّ الألفاظ التي تتعلق بالمَضِيرة.

وهنا قرّر أبو الفتح الخلاص من هذه المصيبة، فخرج، فسأله التّاجر: أين تريد؟ فلم يجد أبو الفتح سوى أن يقول: أريد أن أقضي حاجة، أي أذهب إلى المرحاض.

عندها خرج أبو الفتح هاربًا يعدو، والتّاجر يصيح: يَا أَبَا الفَتْحِ، المَضِيرَةَ! فَظَنَّ الصِّبْيَة أَنَّ المَضِيرَةَ لَقَبٌ له، فَصاحُوا صِياحَهُ، فَمن شدّة غيظه حمل حَجَرًا، فرمى به أحد الصِّبْيَة، فغاص في رأس رجل، فأمسكت به الشّرطة، وضربه الصِّبْيَة بالنِّعال، وبكلّ ما يطيب به الضّرب ويخبث، وزُجَّ به في السّجن فأقام به عامين ونذر ألّا يأكل مضيرة ما عاش.

وهنا عَوْدٌ على بدء، فيعود أبو الفتح إلى أصحابه الذين حضر معهم دعوة للمضيرة بالبصرة، واضطروا معه إلى رفعها، فيسألهم: فَهَلْ أَنَا فِي ذَا، يَا آلَ هَمْذَانَ، ظَالِمُ؟ وهو جزء من بيت شعرٍ للشّاعر عمرو بن براق الهمذانيّ يقول فيه:

وَكُنْتُ إذا قَوم غَزَوْنِي غَزَوْتُهم فَهَل أنا فِي ذا يآل هَمْذان ظَالِم؟

وهنا اتّخذ أصحابه موقفًا متضامنًا مع أبي الفتح، وكأنّهم أبناء طبقة اجتماعيّة واحدة، فقبلوا عذره، ونذروا نذره.

.....

تقويم ذاتي للمحور الثالث رقم (8)

1. اتّخذ أصحاب أبي الفتح موقفًا اجتماعيًا، كيف كان ذلك؟

.....

إجابة التقويم الذاتي للمحور الثالث رقم (8)

1. عندما علم أصحاب أبي الفتح ما حدث مع صاحبهم عندما دعاه بعض التّجار ببغداد، عذروه واتّخذوا موقفًا مماثلًا لموقفه من نَذْرِه أن لا يأكل مضيرة ما عاش. وقالوا: قديمًا قَدَّمَتِ المَضِيرةُ الأَرَاذِلِ (وهم هنا التَّاجر) عَلى الأَخْيارِ (وهم هنا أبو الفتح وغيره من السّاسانيين المُكدين).

.....

مراجع الدراسة

1. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 94:1
2. يتيمة الدّهر، للثعالبيّ، 167:4
3. دائرة المعارف الإسلاميّة.
4. زهر الآداب، للحُصريّ.
5. صبح الأعشى، للقلقشنديّ.
6. وفيات الأعيان، لابن خلّكان، 109:1
7. الأعلام، خير الدين الزّركليّ.
8. الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف.
9. النثر الفنيّ في القرن الرابع الهجريّ، زكي مبارك.
10. أعلام الأدب العباسيّ، محمد رضوان الداية.